

احدهما الى خارج ذات الانسان يقوم بعملية نقل الافكار والمشاعر ، والآخر الى داخل الذات ، حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمراحة لهذين الهدفين اللذين ينبعثان من ذات الانسان ينشأ الهدف الثالث . وهو الهدف الاجتماعي والترابط الانساني ، والتفاهم البشري (6) .

وقد لخص العالم « اولبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فقال :

1 - انها تجعل للمعارف والافكار البشرية ، فيما اجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة بقصد الدلالة على افكاره وتجاربه .

2 - وانها تحتفظ بالتراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية جيلا بعد جيل .

3 - وانها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على تكيف سلوكه وضبطه حتى يلائم هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .

4 - وانها تزود الفرد بأدوات التفكير ، وما كان المجتمع البشري البصير الى ما هو عليه الان ، بدون التعاون الفكري لتنظيم حياته ، ولا يتأنى هذا التعاون التفكري ، الا بالتفاهم وتبادل الافكار بين افراد المجتمع ، والوسيلة العملية الميسورة لهذا التبادل والتفاهم ، هي : لغة الكلام ، وبدونها ينحط التفاهم الى مستوى التعبير عن المدركات المحسوسة والانفعالات الاولية (7) .

فاللغة اهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها ، واذا تدرجنا الى مستويات المجتمعات الحضارية نجد ان اللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات هذا المجتمع . فوحدة القوایات والمبادئ تدعوا الى البحث عن دلالة شاملة للأشياء والافعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء او الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ الغويي ، دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة افراد مجتمع اللغة الواحدة .

فاللغة باعتبارها شرطا ضروريا لتماسك المجتمع ، انما تقع في كونها من جهة ضربا من السلوك البيولوجي الخصيص بادق المعني ، ناشئا تلقائيا من المناشيء الضوضوية الاولى ، وفي كونها في الوقت نفسه - من جهة أخرى - تضطرر الفرد الواحد من افراد الناس ان يلتزم بوجهة نظر سائر الافراد الآخرين ، وأن ينظر الى الامور ، وأن يجري عليها البحث من زاوية

الستمعين ، او عند متلقي آخر ، مرة اخرى ، فالكلمة كالترجم الذي يحتفظ بقيمة التداویة سواء انتقل انس بائع الى مشتر ، او لم ينتقل « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة »

فالبحث في الكلمات من حيث تتركيبها المادي ، وعذاؤاتها المحسوسة ، وآثارها النفسانية ، يلتقي في ميدان واحد مع كل بحث يدور حول الانسان ، وحوال المعرفة . ومن هنا كان التعلم في اللغة فلسفة وعلوما ، وبما ان اللغة حركات وعلامات وشارات ورموز اخذتها الفلسفة واتخذها العلم اداة للتعبير ، هكذا نرى اللغة في نفس الوقت ، مادة للبحث واداة له ، اذ أنها تأمل ينعكس على ذاته .

واللغة ليست شيئا خاصا بفرد ، بل ملكا مشتركا ، انه ( بين ) : بين المرء وشعوره ، وبين الشعور كحالات واحساسات ، وبين ابرازها كأحداث ، وبين المعنویات والمادیات ، بين ( الانا ) والآخرين ، بين الانسان والعالم .

اللغة هي الواسطة العظمى والصفرى في الفياب وفي الحضور ، فيما كان وفيما هو كائن ، وفيما سيكون .

اللغة تعبير ( الانا ) ونداء للآخرين ، اي دعوة ودعاء ، فالماء يعطي الكلمة « الشرف » فيلزمها الكلام امام نفسه واما المجتمع ويقيد سلوكه ويفرض عليه مسؤولية ، ورجل لا كلمة له ، رجل ينقصه الضمير ، يعني ان انسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حرارة التعبير ، الى مستوى العناصر « الانطولوجية » ربما استطعنا ان نقول : الانسان جسم وروح ولغة (5) .

بعد هذه الفذلقة الفلسفية في الكلمة والمعنى والتعبير ، نعود الى جوانب هامة من اللغة فنقول : اذا اردنا ان نعرف اهداف اللغة المكتوبة والتكلم بها والتي قال عنها ابن جني في الخصائص ، والجرجاني في التعريفات : انها اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم . وجذنا انها :

1 - هي اداة التفكير الانساني ، فالقاموس اللغوي الذاتي ، يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 - نقل الافكار والمشاعر من انسان الى آخر . وهدان الهدفان ينبعثان من ذات الانسان كوجود مستقل ، ويتوجهان اثر ذلك اتجاهين متضادين :

بالنسبة للشق الاول من وظيفة اللغة ، فواضح ان طبيعة التخصيص تبدو في وظيفة كل فرد ، بحيث لا يمكن ان يكون خبازاً او نساجاً وحداداً ونجاراً وصياداً في وقت واحد .

ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد في اموره على غيره من أصحاب هذه المهن ، وأن يتصل بهم لقضاء حاجاته ، ولا سبيل الى هذا الاتصال ، ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم ، ولا بد للتفاهم من لغة ولو راقب المرء نفسه يوماً واحداً من حقل الاستعمال اللغوي ، لرأى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة ، بل ان مصالح الانسان قد تتوقف على حسن استخدامه للغة ، لا على مجرد الاستخدام .

واما الشق الثاني : من وظيفة اللغة وهو : تهيئة الوضع المناسب ، لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية ، فان اللغة اصل وجذر لكل ما يمكن ان تتصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كال التاريخ المشترك ، والديين المشترك ، والادب المشترك ، والفكر والاحسان ، والارادة والعمل المشترك ، اذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة ، وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة ، او دين بلا لغة ، او نكرة بدونها ، او احسان لا يترجم عنه بها ، بعد ان يتم تكوينه بواسطتها ، او ارادة تقوم بغيرها ، او عمل يتحقق بعيداً عنها .

ان الشركة في كل اولئك ، هي الحياة الاجتماعية ، ولا تم هذه الشركة بدون اللغة (10) .

ويعتبر بزوج اللغة وبروزها الى الوجود اثناء عملية تطور البشر وارتقائه من المظاهر القائمة التي تمتاز بما لها من أهمية وخطورة بالغتين .

وذلك ان الوسيلة الوحيدة الفعالة التي تتمكن بها من ادراك معنى الحياة ، وتوضيح معالها ، ونمّت مظاهرها هي اللغة .

فمهما كانت اللغة هي تمثيل العالم على مرآة تعكسه ، وفلسفته اللغة تنطوي على انماطها ، وتنسيقها بحيث تصير مطية للمعاني ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمزاً للحقيقة ، وشارعاً للواقع .

قال الامام محمد عبد الله : اللغة مجلس للتفكير وترجمان له (11) .

و جاء عن محمد المبارك : ان اللغة سببنا الى اكتشاف جوانب الامة التي تتكلّمها ، واستكناه خصائص روحاً التي تكنّ وراء برانها (12) .

لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم ، باعتبارهم شركاء او اطرافاً متعاقدة ، ان شئت فهي مشروع مشترك ، لاشك قد يكون عنصراً من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الوجه والهدف لنشوء اللغة . ولكن الذي لاشك فيه ايضاً ، أنها لهم أول ما لهم شخصاً آخر - المستمع - او اشخاصاً آخرين ، يوجه اليهم المتكلم الحديث ، فوسيلة التفاهم بين المتكلم والمسموع تقيس شيئاً مشتركاً ، ومن ثم بمقدار ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية (8) .

و اذا اردنا ان نعرف اللغة ، تعريفاً جاماً مائماً - كما يقول علماء المنطق والاصول - على ضوء تحديد ماهيتها ، فاننا نجد ذلك في منتهی الصعوبة ، ولو تحقق الوصول الى تعريف جامع مائعاً ، فستجد اننا انتهينا الى نص لا يمكن ان يكون تعريفاً ابداً ، يقول الدكتور تمام حسان : ان تعدد مظاهر اللغة من صوبية ، الى كتابية ، الى اشارية حركية ، الى اشارية ضوئية ، الى لغة باللمس على طريقة المكفوفين الى غير ذلك ، لابد ان يفرض على نص التعريف الذي نحاوله أن يطول حتى لا يعود تعريفاً ، اذ يصبح وصفاً مسبباً لعدة امور ، كل منها « لغة » ويبقى بعد ذلك ان يلجم اعلماء في تعريف اللغة الى بيان وظيفتها (9) .

وقد قال بعض العلماء في بيان التعريف : ان اللغة وسيلة لايصال الافكار . وقد رد العالم « تاليران » على ذلك بان اللغة وسيلة لاخفاء الافكار ، لا لايصالها . وقد قال علماء آخرون : ان اللغة وسيلة للتعبير . وقد اعتبروا على هذا التعريف بأن المرء قد يتكلم الى نفسه احياناً ، حتى لا يكون بحاجة الى التعبير عن افكاره ، اذ يكون قد عرفها فعلاً ، وادركتها ادراكاً أعمق مما تستطيع الكلمات ان تعبر عنه .

وقال بعض العلماء : ان اللغة افراز حركي ضروري للفرد . صالح لأن يكيف بالكيفيات الاجتماعية ، وبهذا يمكننا ان نفسر كلام المرء الى نفسه ، وكلامه الى صاحبه .

وقال « هنري دولاكروا » : اللغة هي دالة الفكر . والحقيقة ان اللغة ، في عمومها ، ذات وظيفة هامة جداً يمكن ان تلخص في امرتين :

- 1 - امر فردي : هو قضاء حاجة الفرد في المجتمع .
- 2 - امر اجتماعي خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية . فاما

حياته سواء كان احتياجاً عادياً كثيرون الناس في حياتهم المتميزة مع احتياجاتهم في كل أوقاتهم ، أم كان احتياجاً ضرورياً كاحتياج الباحث للتعبير عن الأفكار القائمة بنفسه لتوصيلها إلى أذهان الدارسين .

وأن اللغة ذات أثر قوي في حياة المجتمع الإنساني ، لأنها السبيل لفهم الآشئء المحيطة بالناس ، والطريق لارتباط أفراد المجتمع بعضهم ببعض ، والموصل للأفكار القائمة بالآذان ، والمبينة لرقي الامم في شئون واجهها (14) .

وقال ( جون لوتر ) : الوجود البشري ملتحم باللغة . ناللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك الناس في كل لحظة ، وترتبط المجتمعات في إطارها التاريخية المتلاحقة ، ففيها ناموس التغير الحتمي الذي يجعلها أدلة صادقة للتعبير ، باللفظ والرمز والإيحاء ، عن حياة المجتمعات العقلية والحسية ، ومعياراً دقيقاً لرقيها أو انحطاطها في ميدان الثقافة والعلم والحضارة .

واللغة لذلك لا تعرف التحجر ، وهي قدرة على العمل ، قدرة كامنة ، وهي لا تفت تغير شكلها ومبنى ، تغير حروفها وأصواتها أو صيغتها وبناؤها أو من ناحية معناها ، فقد تنقل الكلمة من معنى إلى آخر ، أو تضيف إلى معناها معنى آخر جديداً دون أن تترك الأول .

وان تطور لغة ما مرتبط بتطور الأقوام التي تتنطق بها ، واللغة والتطور عنصران مرتبطان ، وهما سمة المجتمعات منذ أقدم العصور ، ولا سبيل لتفضيل لغة على أخرى ، وإنما يكون التفاضل بين الوسائل المتبعة لتنمية اللغات واغناء تراثها التعبيري .

الامة البدائية حتماً لفتها بدائية وغير مسؤولة ومتقدمة إلى عديد من العبارات والالفاظ التي تؤدي المعاني الحسية والجردة ، فهي لذلك تقتصر على التعبير عن تفكير هذه الامة ووسائلها الثقافية المحدودة وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعاً ، وثقافته نمواً ، تطورت لفتها وازدادت قدرتها على التعبير واعطاء كل سمة لفظاً مناسباً .

ان اللغة تمنع الإنسان بالإضافة إلى وراثته البيولوجية خطأ آخر للاستمرار ، يجعل الثقافة ، وتراث المعرفة ، أمراً ممكناً .

وقد أثار العلم الحديث لغة مكنات ووسائل متعددة للتعبير عن دقائق الأحكام العقلية في صورها

ومما هو جدير بالذكر أن أنظار العلماء اختلفت - في تعريف جامع مانع للفترة - طبقاً للمفاهيم التي يدرسونها .

ولذلك نرى فريقاً يعرّفها على أساس عقلي أو نفسي ، ويمثل هذه المدارس ذلك التعريف ، وهو : أن اللغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الأفكار وتقلها من شخص إلى آخر ، ومن مؤيدي هذه المدرسة العالم الأمريكي « سايسير » . وينظر علماء الفلسفة والمنطق إلى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الأفكار فيقول الاستاذ جفوتنز في كتابه « مباديء دروس المنطق » : إن اللغة ثلاثة وظائف :

1 - كونها وسيلة للتوصيل . 2 - كونها مساعدة آلية للتفكير . 3 - كونها أداة للتسجيل والرجوع .

وينظر علماء المجتمع إليها باعتبار وظيفتها في المجتمع ، فيعرّفها العالم اللغوي الأمريكي ( إدجار ستيرنفت ) بأنها : نظام من رموز ملفوظة عرفية بواسطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المبنية .

ومن التأمل في هذه المجموعة من آراء العلماء يتبيّن أن تعريف علماء النفس والمنطق يهدف إلى ناحية واحدة ، لا يتفق والمطلوب من اللغة في المجتمع الإنساني لأنها لا تتفق عند حد التعبير عن الأفكار ، وتوصيلها إلى الأذهان كما يقول علماء المنطق لأن ذلك يقصر وظيفة اللغة على طبقة من الناس هم أهل الفكر ، حال اشتغالهم بأمور فكرية .

ولا يمكن أن يقال أن اللغة أداة لنقل الأفكار ، وإنما هي وسيلة للتعاون والترابط بين أفراد المجتمع ، فأنما يتبين كثيراً من الناس يتكلمون في موضوعات ، وليس يعنيهم نقل أفكارهم إلى غيرهم ، وإنما يكون القصد من حديثهم الترفيه والتسليمة ، أو النظر في أمور تخصّهم في إدارة شؤونهم .

وبذلك يبدو أن رأي علماء المجتمع بتعريفها تعريفاً يتناسب مع وظيفتها في المجتمع هو خير ما تعرف به اللغة ، وإذا كان ذلك صحيحاً فينبغي أن تشير إلى تعريف الاقدمين للغة : وهو أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (13) وهذا التعريف للجريجاني وابن جني . ومن الملاحظ أن هذا التعريف قد تتشابه مع وجهة علماء المجتمع تمثياً دققاً لأن الأصوات ما هي إلا الرموز الصوتية التي تنبئ عن مدلولات خاصة للتعبير بما يحتاج إليه الإنسان في